للنشر والتوزيع
نحو أدب راقٍ

المغامرون الأربعة في بلاد السلطان

تأليف
عزة مختار

الإهداء

..... إلى أمي

التي أطعمتني خبزًا من حروف

فتعلمت كيف أنظم من تلك الحروف حكايات

حفظها الله وجعله في ميزان حسناتها

زياد المغامر الواعد

لـم يكن زيـادٌ فتًي عاديًّا، على الرغم من صغر سـنه، إلا أننا لا يجوز أن نذكـره مع الأطفال أقرانه ؛لأنه يسـبق سـنه كثيرًا، كثرة القـراءة والاطلاع وحفظه القرآن وهو صغير أعطاه سنًّا فوق سنه، وخبرة تمتد سنوات ليكون جديرًا بأن يكون شابًّا صغيرًا يجلس مع الكبار، ويحاورهم ويحرص علي التعلـم من كل صغيرة وكبيـرة تمر أمامه، ليس معني ذلـك أنه يقلد دون وعي، وإنما هو كثير الحوار، كثير الأسئلة، كثير المناقشة والمراجعة.

زيـاد هو الأخ الأكبر لدارين أختـه الصغيرة، هو طالب في الصف الثاني الإعـدادي، انتهي مـن حفظ ثلثي القرآن، وقرر أن يجتهـد في إجازة نهاية العام ليتم حفظه قبل التحاقه بالصف الثالث الإعدادي، يتسم زياد بالطول الفـاره وخفة الحركة واسـمرار بشـرته،وقوة بدنه لحفاظه علي ممارسـة الرياضـة والتماريـن الرياضيـة، يجتهد في دروسـه ؛فصـار محبوبا بين معلميه، علاوة علي حسـن أخلاقه التي تجعله مميـزًا في صفه، ومع كثرة قراءتـه واطلاعـه إلا أن زيـادًا لم يحدد بعد أي اتجاه سـيتخذ في مسـاره التعليمـي، فتفوقـه في الرياضيات والعلـوم يدفع والـده أن يحثه علي أن يكـون طبيبًا أو مهندسًـا، وقراءاتـه الكثيرة في علـوم الجغرافيا والتاريخ والمغامرات والفتوحات، تجعله هو شخصيًّا يفضل ذلك المجال للتخصص فيه، وهكذا كانت تتجاذبه أكثر من رؤية معرفية للسير صوبها.

كانت والدته التي درست التاريخ قبلاً لها الدور الأساسي لتنشئة زياد علي تلك المعارف، فقد كان طفلاً صغيرًا ينام علي قصص الفتوحات الإسلامية، وتاريخ الصحابة، وبطولات شباب الفاتحين، وأخلاق المسلمين حين كانت لهم دولة مترامية الأطراف تمتد من أوروبا لآسـيا لأفريقيا، كانت تصف له

جغرافيا العالم علي الخريطة قبل أن يتعلمها بالمدرسة، فصار يجيد قراءة أي خريطـة، ويعرف مفاتيحها ومقاييسـها وأبعادها دون الحاجة لشـرح أحدهم، أما والده الذي كان يعمل بالتجارة في شـركة متوسـطة بالشراكة مع زوج خالة زياد، مما يضطره للسـفر كثيرًا طـول العام لإبرام صفقات تجارية من معظم بلاد أوروبا وآسـيا، فقد تـرك أمور التربية لزوجته وهو يعلم جيـدًا أن حبها للدين وتربيتها علي الالتزام سـوف تجعل أبناءه خير الأبنـاء؛ ببذلها كل طاقتها في تلقينهـم وتوكلها على الله في النتائج، فترك لها الأمر وهو مطمئن.

وكان زيـاد بالفعل عند حسـنِ ظن والـده به، فقـد كان مطيعًا لوالدته، محافظًا علي صلاته بالمسـجد ما استطاع، فإن فاتته فريضة أسرع وأداها بالبيت ولا يترك صلاته أبدًا.

أما أختـه دارين التي تصغره بعامين، فعلى رغـم حبها للقراءة، إلا أنها كانت تميل أكثر للفن والرسـم والتلوين، كانت بارعة وفنانة بطبيعتها، كل كراسـاتها مليئـة بالزهور والوجـوه الجميلة التي لا تكف عن رسـمها ليل نهـار، حتى في الحصة الدراسـية لا تكف عن ذلك رغـم مطالبة المعلمات لها بالانتباه، جدران غرفتها معلق عليها أهم رسوماتها التي تحبها وتلاقي عليها استحسـان المقربين منهـا، دارين كانت هادئة جـدًّا، يحبها كل من تقع عينه عليها لحنانها الغريب وصوتها الناعم الهادئ، وبشـرتها الصافية وعينيها شديدتي السـواد وصوتها حين يترنم بالقرآن، فتاة بريئة وجميلة وشديدة الذكاء.

اهتمت بهمـا والدتهما منذ الصغر وقد تفرغت لهمـا تمامًا، ولأنهما كانا قريبين جدًّا من خالتهما ويحبانها مثل والدتهما، وأيضًا قريبين في السكن، فكانوا يتزاورون كثيرًا، دارين أكثر مجالستها ليوسف الذي رغم صغر سنه، إلا أنـه كان مثلها يحب الرسـم والتلوين، معظم الوقـت الذي يقضونه عند

خالتهم كان يوسف يلازم دارين، يري كيف ترسم؟ ويركز علي المنحنيات والخطوط والتفاصيل الصغيرة، ثم اختيارها للألوان ليكون أول من يصفق لها حين تنتهي من الرسم، ليختطف منها الورقة ويمكث علي تقليدها.

في هذا اليوم كان والدهما سـيقرر متي يسـافر ليحدد كل منهما الهدية التي يردها منه في رجوعه؟ لكن والدهما وعدهما بهدية أكبر مما يتخيلون، علي أن يعرفا المفاجأة في زيارتهما لخالتهما ليلاً.

❖ ❖ ❖

رودينا الذكية

فتــاة ذكية لماحة، في الصف الثالث الابتدائي، عندها تســع ســنوات، لا تترك شيئًا لا تفهمه إلا وتسأل عنه، وتلح في السؤال حتى تعرفه تمامًا.

هي الأخت الكبري لشــقيقها الوحيد يوســف الذي لا تكف عن الشــجار معه كلما اجتمعا في مكان واحد، بســبب ما يقــوم به من أعمال تضايقها، مثــل الكتابة علي جدران غرفتها، أو اللعــب بالكتب والقصص التي تحبها وتحتفــظ بها في مكتبة بغرفتها بجوار ســريرها، وهي تقضي فيها الوقت بالســاعات المتواصلة لا يخرجهــا من غرفتها، إلا أن تتنــاول طعامها بعد إلحاح من والديها، أو في أوقات الصلاة التي لا تضيعها أبدًا.

أما يوسف الذي كان يقضي الوقت لعبًا علي هاتف والدته

فهو في الصف الأول الابتدائي، ورغم أنه يحافظ علي الصلاة في وقتها، إلا أنــه كان طفلاً مشــاغبًا، يحب اللعــب كثيرًا، ولا يهدأ فــي مكان واحد، يلقي بكل شــيء من حوله على الأرض ولا يراعي تعب والدته التي لا تكف عــن العمل ليل نهار في محاولة تعليمه،وتنبيهــه علي الدوام أن الله يحب المســلم النظيف، وصاحب الصوت المنخفض، لكن يوســف الذي لم يكن يحب القراءة كثيرًا، كان ينتبه مرة، ثم يعود وينســي ويفعل نفس الأخطاء طيلة الوقت.

كانت رودي التي لا تكف عن البحث والاطلاع، تتلهف علي كتاب يشتريه لها والدها الذي يشــجعها دومًا علي القراءة، ويناقشــها فيما تقرأ، ويجيب عن أسئلتها المتنوعة في كل المجالات، ويساعدها كذلك علي اختيار الكتب التي تتناســب مع ميولها في البحث والمعرفة، والتي لا تتوقف علي معرفة

قصص التاريخ والروايــات، بل كانت تبحث في جغرافيا الدول، ومواقعها وطبيعتها وأشهر مدنها، وعادات وتقاليد شعوبها، ولغتها، ودينها.

كانت تتنافس مع أبناء خالتها فــي القراءة واقتناء الكتب وتتبادل معهم المعلومات والكتب التي لا توجد عند أحدهم.

كثيــرًا ما تخيلت نفســها علي متن طائــرة أو قطار يســافر عبر الزمن، فيسافر للماضي البعيد حيث السكان البدائيين لتعيش مثلما عاش الإنسان البدائي الذي كان يسافر علي ظهور الخيول، ويطارد حيوانات الغابة ليأكل لحومها ويصنع من جلودها ملابسه، وتصنع بنفسها اللحوم المشوية علي جذوع الأشــجار وتأكل بيديها، حيث إنه لا توجــد أدوات طبخ أو ملاعق أو سكاكين، ثم تري نفســها وكأنها تقفز علي شجرة عالية تراقب الحيوانات والطيور الجارحة من بعيد.

وكم من مرات ســافرت فيها إلى بلاد الإســكيمو في أقصي شــمال الكرة الأرضية حيث الجليد الذي لا يذوب! وحيث يضطر سكانها لارتداء الملابس الشــتوية الثقيلة طوال العــام ليظهروا بمظهر الدب القطبــي علي الدوام، وقامــت بمغامرة مع الأســماك في قاع بحيرة جليدية تحــاول البحث معها عن مخرج لها لتري بعض ضوء الشــمس، كما أنها سافرت لأدغال أفريقيا لتتعرف علي غاباتها الســوداء بأسرارها العجيبة وأرضها الخصبة الرائعة، وحيواناتها النادرة، وشعوبها البسيطة.

لــم تكن رودينا تكف عن الســفر فــي خيالها مع كل كتــاب تطلع عليه، لتعود مــن رحلة القراءة فيه بمعلومات ومغامرات وكم من الأســئلة تعدها لوالديها وتنتظر الجواب بشغف، كما ينتظر والدها أسئلتها بحب وتشجيع.

ولذلك كانت رودينا فتاة محبوبة في أســرتها وبين زميلاتها في الفصل والمدرســة، وبين معلميها الذين كانــوا يرون فيها باحثة صغيرة نبيهة في

كل المواد الدراسـية، وكانت دائمة الزيـارة للمكتبة حتى أنها حصلت علي لقب «صديقة المكتبة» في مدرسـتها، ليس معني هذا أنها كانت كسـولة، بل كانت نشـيطة كثيرة الحركة، تمارس الرياضة، وفي مسـابقات الجري في مدرسـتها كانـت تحصل علي المرتبة الأولي، فنالـت بذلك حب وتقدير الجميع من حولها.

❖ ❖ ❖

يوسف الفنان الصغير

كمـا مر بنا يوسـف الأخ الأصغر لرودينـا، وكان أكثر ما يزعجها منه هو خطوطه ورسوماته علي جدران غرفتها، بعدما اضطر والده لأكثر من مرة أن يعيد طلاء جدران البيت بسبب ما يفعله، والحقيقة أنه لم يكن أحد يفهم هذا الطفل الصغير المحب للرسـم بطريقة عجيبة سوي دارين ابنة خالته، كان يوسـف فنانًا موهوبًا، كان يحاول الاسـتيلاء علـي روايات وكتب أخته الخاصـة بمغامرات الفاتحين والمغامرين، ليـس همه القراءة ولا المعرفة، وإنما كان كل ما يهمه أن يشاهد الصور المختلفة ويقوم بتقليدها، لا يهتم أين ينقل الصورة؟، ولا يهمه ما يفسـده في البيت بسـبب رغبته في الرسم وتقليد المشـاهد التي يحتفظ بها في ذاكرته؟ يرسـم علـي أبواب الغرف، أو قطـع الأثاث، وبالطبع كان يقـوم بذلك في كتب رودينا، حتى أنها كانت تحاول جاهدة في القراءة مرة أخري فلا تستطيع بسبب أن الألوان الداكنة تغطي علي الحروف فتفسد المعني وتعجز عن الفهم.

واليـوم قد بدأت فتـرة الإجازة الصيفية، ورغم حصول رودينا ويوسـف علي أعلي التقديرات إلا أن الشجار قد بدأ بينهما منذ صباح اليوم الأول في الإجـازة الصيفية، فقد بدأ اليوم مبكرًا كما اعتادا الاسـتيقاظ كل يوم، أدي كل منهمـا صلاته مـع والدتهم خلف والدهم، ثم تناولـوا الإفطار في حالة مـن الصخب، كلاهما يطلب من والده هديـة النجاح بعد أن طلب منهما أن يختاراها كيفما شـاءا، طلب يوسـف من والده أكبر علبة ألوان بالمكتبات، كي يستطيع أن يرسم بها ما يشاء ويعوض فترة الدراسة، لكن رودينا التي كان يناديها الجميع رودي، صرخت قائلة :

لا يا أبي، يوسف لن يكف عن الرسم على الجدران والأبواب، ولن نستطيع

أن نمنعه طالما حضرتك لن تكون بالبيت

لا يا أبي، أعدك أني لن أرسم عليها، اشتروا لي أوراقًا تكفيني وأنا لن أرسم عليها، لكني لا أريد هدية سوي الألوان، لن أقبل بغيرها، كان هذا هو يوسف الذي بكي فاحتضنه والده ووعده بأن يشتري له الألوان شرط ألا يستخدمها في غير موضعها،

وهنا انتبهت الأم لأمر لم تكن تنتبه له من قبل، وهو حب يوسف للرسم وكأنه يهواه أكثر من أي شيء آخر، بل وحين نظرت في رسوماته أدركت أنها أمام موهبة فنية حقيقية، فيوسف لم يكن يكتفي بمجرد نقل الصور، وإتقانها كما هي، دون إخلال، وإنما اكتشفت براعته في الإبداع الحر، فقد كان يرسم من خياله صورًا طبيعية بإضافات وأبعاد متناسقة، لكنها تعبر عن عوالم في خياله هو، وكأنه لا يرسم من وحي رؤية عينه، وإنما من وحي عالم بداخله هو، يتخيله فيبدع في تصويره، فعرفت من هنا أن موهبة ابنها الصغير موهبة حقيقية، تستحق المتابعة والتنمية والاهتمام من الجميع،

ولأن رودي كانت تحب أخاها حقًّا وما يضايقها منه يمكن السيطرة عليه، فقد سمعت لنصائح أمها باحتوائه، ومساعدته في تنمية قدراته وموهبته، وشغل وقت فراغه فيما ينفعه،

فرح يوسف بتغير معاملة الجميع له، خاصة أخته التي يحبها والقريبة منه، واصطحبته معها في غرفتها، بل وطلبت منه أن يستخدم الألوان الجميلة التي اشتراها له والده في رسم بعض الشخصيات في الكتب التي تقرأها، ورسم بعض الأماكن بعد وصفها له، فكانت النتيجة رسومات فائقة الجمال من وحي خيال يوسف وإبداعه.

❖ ❖ ❖

المفاجأة

وضعت رودي خطتها في فترة الإجازة الصيفية علي أســاس أن تكتسب بعــض المعــارف الجغرافية والتاريخية عــن بلاد المســلمين، خاصة أنها ســتلتحق بالصف الرابع الابتدائي ولأول مرة ســتدرس مادتــي الجغرافيا والتاريخ، فوعدتها والدتها أن تبســط لها الكتــب الخاصة بجغرافيا الوطن العربي والإســلامي، وتاريخ تلك البلاد من بداية الفتح الإســلامي لها وحتى اليــوم حســب قدرة رودينــا علي الاســتيعاب والتحصيل، واشــترت الكتب اللازمــة مــع والدها والفرحــة تملأ قلبها وتــكاد تطير وهي تســير بجوار والدهــا، تحمل بيــن يديها كنوزًا مــن المعرفة، تأخذ درجات ســلم المنزل ركضًا لتفاجئ أخاها بكم الصور والخرائط،بالكتب التي اقتنتها، فيشاركها يوســف فرحتها، ويعد أدواتــه ليصاحب أخته في غرفتهــا كلاهما يمارس هوايته المحببة.

علي مائدة العشاء تجتمع الأسرة بعد عودة الأب من عمله، وهو الحريص دائمًا -طالما كان في مصر- علي التواجد بين أبنائه قدر الاستطاعة خاصة في وجبتي الإفطار والعشــاء، يتحدث مــع أبنائه ويحكي لهم عن كل البلاد التــي زارها عن المواقــف المضحكة أو العجيبة، والمشــاهد المتنوعة التي يلقاها في أسفاره، وكانت الأم والأبناء يتابعونه بشغف وحب، ولا

يقاطعه في حديثه ســوي رودي التي تحب أن تعرف تفاصيل كل شــئ، فتسأل والأب يجيب بينما يوسف يحاول منعها حتى لا تقطع حديث والده، غير أن الوالد يحتضنه مبتســمًا قائلاً له: اترك أختك تســأل ما تشــاء، فمن حقها أن تعرف، ومن واجبي أن أجيب علي تساؤلاتها.

في تلك الليلة قبل العشاء وقت تناول الفاكهة قال لهم والدهم :

عندي لكم مفاجأة الليلة، سوف تسعدكم جميعًا.

مفاجأة؟ أي مفاجأة يا أبي؟ أخبرني الآن بالله عليك،

وكيف تكون مفاجأة يا يوسف إن أخبرتك الآن؟

أخبرنا يا أبي، أعلم أن جميع مفاجآتك رائعة، فما هي أخبرنا الآن؟

اصبري يا رودي، سأخبركم بها بشرط.

مـا هو يا أبي (قالها يوسـف وهو يـدق بقدميـه الأرض اعتراضًا علي الشرط الذي سيضعه والده مسبقًا لمعرفة المفاجأة)؟

الشـرط يا حبيبي أن تأكلا الفاكهة كاملة قبل تناول العشـاء، ثم تشـربا الحليب الدافئ، ثم أخبركما بها.

لا يا أبي، هذا ظلم، حضرتك تعلم أني لا أحب الحليب، سأكتفي بالفاكهة.

لا يا رودي هذا شرط.

ضحك يوسـف ضحكات عالية وهو يصفق بيديه ثم يشـير لأخته قائلاً، طفلة صغيرة لا تحب الحليب، دعها يا أبي وأخبرني أنا فأنا أحبه.

اغتاظت رودي من تصرفات أخيها قائلة بوجه غاضب : لا يا أبي أخبرني أنـا فهـو لن يتناول الفاكهة، لا يحبها، بل هو الطفل الذي لا يفهم ولا يدرك احتياجاته.

لا يا يوسف أنت وأختك لا بد من تنفيذ الشرط مكتملاً.

كانت الأم تتابع الحديث من بعيد وهي تبتسم غير مصدقة أن أبناءها قد يخضعـون للضغط ويأكلون الفاكهة،ثم يشـربون الحليـب رغبة منهم في معرفة مفاجأة والدهم.

في الوقت الذي كانت تسأل فيه رودينا والدها :

لمــاذا يا أبــي تصر يوميًا أن نــأكل الفاكهة قبل العشــاء؟ لماذا لا تكون بعده؟ ولماذا الحليب كل يوم؟

ســؤال جميــل منك يا حبيبتي، والأجمــل أن أجيبك بينمــا نتناولها معًا، أما بالنسبة للفاكهة يا رودي، لماذا نأكلها قبل الطعام؟ فلأن فائدتها الكاملة في أن نتناولها على معدة فارغة من الطعام، بمعنى آخر، يجب أن تكوني جائعة قبل تناول الفاكهة، لأنك إن تناولتها بعد الطعام فلن تصل فائدتها لجســمك، بل وقد تكون ضارة وتحدث لك بعض العفونة ونحتاج للذهاب للطبيب،

نعــم يا أبي لقد قــرأت ذات مرة أن الفاكهة يجــب أن تكون قبل اللحوم، وبقية أنواع الطعام حتى نستفيد منها، لكن لا أذكر أين قرأتها؟

تأملــي يا رودي قــول الله –تعالى– «وفاكهة ممــا يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون»، بدأ الله –عز وجل– بالفاكهة حين أراد أن يصف طعام أهل الجنة، وهذا هو الترتيب الصحي بالفعل.

صدق الله العظيم.

نعم يا أبي، فلم الفاكهة إذن؟ أليست الحلويات تكون أجمل؟

لا يا يوســف، الفاكهة صناعــة ربانية، خلقها الله لتكون غذاءًا للإنســان ينفــع ولا يضر، فهي تحتوي على الســكريات والفيتامينات والألياف، وكل نــوع يحتوي على نوع مختلف من تلك الفيتامينات التي تقي الإنســان من الأمراض، وتســاعده على النمو بشــكل سليم، أما الحلويات يا يوسف، فهي سكريات معقدة، ونشويات وزيوت ضارة، تضر بالأسنان، والمعدة وتؤدي للسمنة المفرطة التي تجلب الأمراض وتؤدي للكسل والخمول.

اضطر الأبناء لتنفيذ شــرط أبيهم بعد شــرحه المفصل عن فوائد ترتيب الطعــام وتناوله بكميات قليلة ومضغه جيدًا حتى تتم الاســتفادة منه، بعد العشــاء ذهب كل منهم لغسل أسنانه عائدًا بأقصى سرعة ليعرف المفاجأة التي وعدهم والدهم بها.

رحلة في ظلام الليل

كانـت كلمات والدهم كفيلة بأن يقفز الاثنان طربًا؛ صارخين من الفرحة التـي لم يصدقوهـا، بينما ضحكة الأبوين من رد فعـل الصغار تكاد تصل للجيران.

قال لهم والدهم انتظروا دقائق وسترون، من سيزورنا الآن؟

من يا أبي؟ من الذي سيزورنا؟

كان هذا صوت يوسـف ليسـمع جـرس الباب ثم يجري مهـرولاً تجاهه ليفتحه، فإذا بزياد ودارين يتسـابقان لحضن خالتهما، بينما يوسف يهتف طربًـا لتلك الزيارة، كي يخبر أبنـاء خالته أن أباه أعد مفاجأة لهم، رغم أنه لا يعـرف تلـك المفاجأة حتـى الآن، إلا أنه يتوقع أن تكـون هدية ضخمة، اجتمعت الأسرة الكبيرة، يتضاحكون من ردود فعل الأطفال حين اجتمعوا، وحيـن كانوا يلحون فـي معرفة المفاجأة الكبرى، كانت السـعادة الغامرة تملأ المكان.

ولـم لا وقد قرر الأب أن يصطحب أسـرته وأسـرة شـريكه في رحلتهما التاليـة إلى تركيا، والتي قد تطول لشـهرين وأكثر هـذه المرة،نظرًا لحجم التبـادل التجـاري الكبير الذي سـيقوم بـه، مما سـيضطره للتجوال على مصانع مختلفة وقد يضطر للسفر لأكثر من مكان داخل الأراضي التركية.

بعـد التعبير عن سـعادة الجميع بالمفاجأة غيـر المتوقعة انفرد الأبوان بغرفـة المكتب لمناقشـة الأمور الخاصـة بالعمل، ودخلـت الأختان لغرفة الاسـتقبال ليتحدثـا معًا، ويرتبان مـا يمكن ترتيبه للإعـداد للرحلة، بينما انضم الأطفال لبعضهـم البعض بغرفة رودي التي فتحت جهاز الكمبيوتر

الخاص بها ليسبقها زياد على مؤشر البحث وهو يعلم جيدًا، علام تبحث ابنة خالته؟ مر الوقت والكل مشغول في أمر يهمه إلى أن حان وقت انتهاء الزيارة وتوصيلهم حتى الباب الخارجي.

طلبت الأم من أبنائها النوم مبكرًا حتى لا يعتادوا السهر في فترة الإجازة الصيفية، بدون جدال دخل الصغيران كل منهم إلى غرفته.

بعد دقائق سمعت رودي نقرًا خافتًا على باب غرفتها وصوت أخيها يوسف يناديها :

رودي، أنا يوسف، هل أدخل؟

بصوت خفيض أجابت، ادخل يا يوسف.

تعجبت رودينا من مجئ أخيها دون علم والديهما في وقت يستعد كلاهما للنوم.

ماذا بك يا يوسف؟ لماذا لم تنم؟

كيف أنام يا رودي؟ كلما حاولت النوم أتخيل الرحلة التي سنقوم بها، وما يمكن أن نراه من مشاهد جميلة يمكن أن أقوم برسمها، أتخيل الملابس التي سأرتديها هناك، وأتخيل الأصدقاء الذين يمكنني أن أحصل عليهم، وأتخيل الطائرة بينما تطير بين السحاب، هل يا تري لو شقت الطائرة السحاب يا رودي؟ هل يري الطيار أمامه؟ أو أنه يمكن أن يصطدم به؟ هل يمكنني لمس السحاب بيدي يا رودي؟

كانت أخته تنصت إليه وهي تبتسم من خياله الواسع وتساؤلاته البريئة في الوقت الذي فكرت فيه أن تجيب على تساؤلاته بطريقتها الخاصة.

أشارت إليه مبتسمة وقالت :

انتظر يا يوسف، سوف أجيبك على كل ما يشغلك.

وهل تعرفين جواب كل تساؤلاتي؟

لا بالطبع، فأنا لم أسـافر لتلك البلاد من قبل، ولم أقرأ عنها في الحقيقة، ولا أعرف سوي بعض المعلومات البسيطة من خلال ما سمعته من والدتنا عن فتح القسطنطينية، لكن هناك طريقة نعرف بها كل شيء وليس جواب تساؤلاتك فقط.

كيف أيتها الفصيحة؟ نسأل من؟

نسـأل جوجل، ألا تعرف أن جوجل يمكنه الجواب على كل سؤال نطرحه عليه؟

تقصدين جوجل على شبكة الإنترنت؟

نعم يا يوسف.

وكيف سيجيبنا؟ وكيف سنسأله في الأصل؟

ستري الآن، لقد سألته بالفعل أنا وزياد، والآن سأريك إلام توصلنا؟

خفض يوسف صوته أكثر قائلاً، لكنّ أبي وأمي إذا سمعانا فلن يسمحا لنا بالسهر، اخفضي صوت الكمبيوتر، والإضاءة ماذا سنفعل بها؟

أسـرعت رودينا ووضعت جهـاز اللاب توب تحت الغطاء، وتسـللت هي وأخوهـا للاختبـاء أمامه حتـى لا يري والدهمـا الضوء، أو يسـمعا صوتًا؛ ليسـتطيعا معرفـة ما يريدان مـن معلومـات تفيدهما عن المـكان اللذان سيقضيان فيه وقتهما معظم الإجازة الصيفية.

كان البيت هادئًا تمامًا،والضوء بالخارج خافتًا، مما يوحي بنوم الوالدين، كان عليهما طرح السؤال الأول على محرك البحث بالجهاز، قال يوسف :

اسأليه عن الحدائق العامة والمتنزهات وأجمل المناطق.

لا يا يوسـف بل يجب أن نبدأ بالخريطة العامة لتركيا، ثم ندرس خرائط المدن التي من المقرر أن نزورها، وما زلت أذكر بعض الأسماء التي ذكرها أبي أمامنا وهو يحدث والدتنا عن تفاصيل الرحلة.

وافق يوسف مضطرًا لأن يبدأ بالخريطة التي لن يفهم رموزها ومفتاحها، واهية الخطوط المرسـومة ولا يعرف إلام تشـير أو ماذا تعني؟ معتمدًا في الشرح على أخته التي تتحكم بالأمر

كله، بينما كل ما يشغله أشياء أخرى غير المعلومات التي تشغلها هي.

بـدأت رودي في البحث لتظهر عدة خرائط لدولـة تركيا، بعضها باللغة العربيـة وبعضهـا بالإنجليزيـة أو اللغـة التركية، بعضها يوضـح البحار والمضايق التي تطل عليها ومنها، وبعضها يكتفي بذكر أسماء المدن.

أعادت رودي النظر في الخريطة مرات ومرات، يمينًا ويسـارًا، ثم تسـير بإصبعهـا على حدود الخريطة، تغلق عينيها وتفتحهما غير مصدقة فتظن أنهـا أخطأت في البحـث، فتعيد قراءة اسـم الدولة المكتـوب بخط ظاهر ومظلـل، فـلا يمكـن أن أخطيء في قراءتـه أعلي الخريطـة (تركيا)، ثم تعيد قراءة أسـماء المدن بالترتيب فتردد ما تعرفه منها من مدن مشهورة تاريخيًا،

أنقرة، استانبول.

إذن الخريطة ليست مخطئة، ولكن كيف؟

كانت تهمس لنفسها بتساؤلاتها،وأخوها في حيرة لا يفهم لماذا أخته في تلك الحيرة؟ حتى قطع صمتها قائلاً :

ماذا بك يا رودي؟ هل هناك خطأ ما؟ لماذا لا تشرحي لي؟

انتظر يا يوسـف، الخريطة لسـت أفهمها، كيف تكون تركيا في قارتين

في نفس الوقت؟

قارتين؟ ما معني قارتين؟

القارة يا يوسـف هي أرض مرتفعة تشبه الجزيرة، لكنها ذات مساحات كبيرة تحوي مجموعة من الدول وهي تكون العالم اليابس.

وضحـي لي يا رودي ببسـاطة بالرسـم، ماذا تعنين باليابسـة والأرض المرتفعة؟ اشرحي لي ببساطة كي أفهم.

انظر يا يوسف، الأرض عبارة عن كرة، كرة كبيرة جدًا

نعم أعرف هذه المعلومة.

تنقسـم هذه الكرة ليابسة وماء، اليابسـة هي الأرض التي نعيش عليها، والماء هو البحار والمحيطات والأنهار.

تمام؟

نعم.

نسبة الماء أكبر بكثير من اليابسة، تتشكل الأرض بنسبة ٧١٪ من الماء، ٢٩ ٪ من اليابسة، هذه النسبة من اليابسة هي ما نسميه القارات، كل قارة عبارة عن مجموعة من الدول

لكننا يا رودي نعيش في دولة مصر، فكيف تقولين إننا: نعيش في قارة؟

يا حبيبي انتظر، كما قلت لك، القارة عبارة عن مجموعة من الدول، يعني مثـلاً نحن نعيش في مصر، ومصر جزء من قارة أفريقيا، أقرب لك المعني يا يوسف.

أين نعيش نحن؟

في شقتنا.

وأين شقتنا؟

في العمارة؟

وأين العمارة يا يوسف؟

في الشارع.

والشارع في وسط المدينة، والمدينة اسمها القاهرة، والقاهرة في مصر، أليس كذلك؟

نعم.

وحين يسـألك أحد أين تعيش؟ يمكنك أن تقول في شـقة رقم كذا عمارة رقم كذا، في شارع كذا.

نعم.

نحـن نعيش في مصر، في قارة أفريقيا، على نسـبة ٢٩٪ من مسـاحة اليابسة في العالم، فهمت يا يوسف؟

نعـم فهمت، فما الذي يحيرك في الخريطة وأوقفك؟ هل تركيا لا تقع في قارة؟

ضحكـت رودي وهي تقول لا يا يوسـف، بل تقع فـي قارتين، الخريطة تقول إنها تقع في قارة آسيا وقارة أوروبا.

وهل ينفع؟ دولة تعيش في قارتين؟

نعم يا يوسـف ينفع، مصر لها جزء في قارة آسـيا، سيناء الحبيبة وهي جزء مهم جدًا من مصر.

سأفتح لك خريطة العالم لتفهم ماذا أقصد بالقارات؟

انظر يا يوسف هنا.

تلك خريطة توضح قارات العالم، وهي ست قارات كما تري،

اقرأها أنت بالترتيب:

١. آسيا.

٢. أوروبا.

٣. أمريكا الشمالية.

٤. أستراليا.

٥. أفريقيا.

٦. أمريكا الجنوبية.

والآن نفتح خريطة تركيا مرة أخري لنري موقعها في قارات العالم.

انظر إلى الخريطة.

جزء في قارة آسيا يطل على الدول العربية والإسلامية.

وجزء في قارة أوروبا يطل على دول أوروبية.

حقيقة أنا لست أفهم.

ولأول مرة أكتشف تلك المعلومة.

في هذه الأثناء نظر يوسف في الساعة وقد غلبه النعاس فلم يعد قادرًا على الاستيعاب أو فتح عينيه ليري وقد تجاوزت الساعة الواحدة صباحًا.

رودي، سأذهب لأنام.

لم أعد قادرًا.

انتظر يا يوسف انتظر.

أتري ما أراه؟

أتري تلك السفن في مضيق البسفور؟

أين تلك السفن؟ لا أري شيئا؟ أريد أن أنام.

يوســف لا تترك يدي، تمسك بي يا يوســف ستسقط في البحر، صرخت رودي ويوســف في صــوت واحد بينما تهوي بهما الريــح بعيدًا على ظهر سفينة في عرض البحر، أنقذووووونا

❖ ❖ ❖

في عرض البحر

تشبثت رودي بكلتا يديها في يد أخيها بأقصى قوتها حتى لا تفلته فيقع أحدهمـا بعيدًا عن الآخر، بينما تتعالـي صيحاتهما طالبين النجدة والإنقاذ وهما يطيران بين السحب السوداء، لا يكادان يريان شيئًا.

لا يكادان يذكران شيئًا مما كانا فيه، آخر ما تذكره أنها كادت تصل لحل الخريطة وتعرف كيـف تقرؤها وتحدد الموقع بدقة، وأن أخاها غلبه النوم وكاد ينام بجوارها،ولم يعد قادرًا على السـير لغرفته، حتى حملتها الرياح لقلـب الخريطة بصـورة مفاجئة تـكاد معها أن يتوقف قلبهـا، ورغم أنها قرأت الكثير من القصص والروايات إلا أنها كانت تدرك الفرق بين الحقيقة والخيـال، وتعرف الفـرق بين القصة التاريخية التي تسـتهويها، وقصص الخيال التي تملأ الأطفال رعبًا، وبما أنها من القراء الجيدين، فهي تعلم أن مـا هي وأخوها فيه الآن هو فوق الخيال، ولا يمكن أن يكون واقعًا، فها هي تسبح مع الريح يغطيهما الظلام ولا تدري لأين؟ ولا يسمع صرخاتهما أحد.

فمـا الذي جذبهـا من داخل جهـاز كمبيوتر؟ وما قوة هـذه الرياح التي تحملهما؟ وإلي أين؟ ولم هما؟

تسـاؤلات كانت تدور فـي خيالها كالبرق الخاطف سـريعة دون أن تجد جوابا لأحدها، كان يوسف من شدة الريح والخوف من الظلام يغمض عينيه ويحكـم قبضة يده في يد أخته بينما تذهب بهما الرياح يمنة ويسـرة حتى أنهما شعرا بها داخل عظامهما، رغم بداية الصيف والأجواء الحارة بالقاهرة.

مـن بعيد لاحظـت أنها تقترب من ميـاه بحر متلاطم تسـمع صوته من بعيد، بينما تظهر من بعيد معالم السفن التي كانت واضحة على الخريطة

الأخيرة في تصفحها، تحملهما الريح وحين اقتربا من السـفن الراسية في المضيق إذا بالريح تحملهما ببطء في الظلام إلا من ضوء خافت على ظهر السفن هنا وهناك،

الآن شـعرا ببعض الهدوء فهدأ الصراخ، غيـر أن الخوف والعجب يتزايد فـي قلب كل منهما، اسـتقاما وكأنهما يقفان على بسـاط ريح عجيب، ولم يترك أحدهما يد الآخر.

ينظران هنا وهناك؛ ليتأكدا من المشـهد الذي يقترب، السـفن تقف على مسافة من مضيق البسفور في عرض البحر، بينما تتوسط المضيق سلسلة ضخمـة تحـول بين دخول تلك السـفن إليـه وكأنها حـارس قوي يحرس المدينة.

في ذات الوقت هناك حراك غريب بين الأشجار المحيطة بالشاطئ والتي تشبه الغابة من كثافتها، لكن الضوء الخافت للقمر يظهر حركة غير عادية لتلك الأشجار، تري هل بينها حيوانات مفترسة سوف تنقض عليهما بمجرد نزولهما إلى اليابسة؟، أو أنها مجموعات من الجنود سوف تقبض عليهما؟ لـم تعد رودي قـادرة على التخيل أو التفكير، تركت نفسـها للريح تتحرك بها كيفما شـاءت، كان كل ما يقلقها والدتها لو اسـتيقظت ولم تجدها في فراشها هي وأخاها.

بالتأكيد سـتغضب أو تقلق وسـتخبر والدهما، ولا تعرف كيف يكون رد فعله؟

تمنت في هذه اللحظة لو كانت تحلم وينتهي الأمر بيقظتها،

تمنت لو كانت تنام هانئة تنتظر الصباح لتذهب مع والدتها لإنهاء الأوراق اللازمة للسفر.

ليتها نامت مبكرة كما أمرها والداها!

ليتها لم تطلب من أخيها التصفح والبحث في الخرائط واكتفت بالنوم !

لكن الأمـر حدث بالفعل انتهـي وأصبح لزامًا عليهـا أن تواجه الحقيقة وتتعامـل معها هـي وأخوها،وترعاه كـي لا يصيبه مكروه، فهـي الكبيرة والقادرة على الاعتناء به حتى ينتهي ذلك الكابوس وتعود به للبيت.

فهل حقًا ستعود؟

هل ستسـتطيع الاعتناء به وسـط ذلك الظلام والغربة والبحر والسـفن، وحركة لا تعرف من وراءها في الغابة المظلمة،

لم تعد تدري شيئًا سوي الانتظار؟

مر الوقت سريعًا، وحطت بهما الريح على ظهر إحدي تلك السفن، وجدت بعـض الرجـال يحملون بعـض الأشـياء ينزلونها من فوق ظهر السـفينة ليتناولهـا منهم البعض الآخر أسـفلها، بينما من بعيـد يحملها آخرون إلى اليابسة.

تحسسـت الطريق لتقترب منهم وهي خائفـة وتطلب من أخيها الصمت التام حتى لا يشعر بهم أحد.

اختفيا خلف بعض الحبال التي يبدو من حجمها أنها قوية جدًا، وتستهلك مسـاحة كبيرة،ثم من كومة حبال لكومة أخري اقتربا من الرجال؛ ليسمعا ما يقولونه وهما يكتمان أنفاسهما حتى لا يشعر بهما أحد.

همسـت لأخيها، يوسـف، اقترب مني ؛لتسـتدفئ فالجو بـارد جدًا، هل تسمع شيئًا؟

نعم يا رودي، هذا الرجل يقول شـيئًا عن تخفيف أثقال السـفينة ليخف وزنها.

فهمت ذلك من كلامه، لكن أي سفينة تلك؟ ولمن؟ ولماذا؟

سـننتظر هنا حتـى الصباح يـا ردوي، ربما يأتـي والدنـا للبحث عنا، بالتأكيد سـيفعل، أو نذهب نحن لربان تلك السـفينة ونطلب منه أن يعيدنا لبيتنا، ونشرح له أننا جئنا بطريق الخطأ ولم نقصد.

وهل سيصدقنا يا يوسف؟

ولم لا ؟ أليست هي الحقيقة؟

تعالي نقترب أكثر لنفهم ما يفعلون، ربما نعرف عنهم شـيئًا، فإن كانوا من الطيبين نطلب منهم المسـاعدة؟ وإن كانوا من القراصنة نختفي حتى نطلب النجدة أو ينقذنا أحد.

❖ ❖ ❖

مكتبة في جوف السفينة

حين اقتربا من سطح السـفينة اتضحت بعض معالمها، سفينة هائلة لا يسـتطيع أحدهما أن يحتويها بمجرد نظرة أولية، كل الأشـياء عليها تتسم بالضخامة، حتـى تلك الحبال التي لا حظاها في البداية لم تكن كأي حبال رآها أحدهما من قبل على حافة السـفينة، تتراص مجموعات كبيرة من تلك الحبال المتراصة بشكل دائري فوقها فوق بعض، موضوعة بشكل هندسي مذهـل، بجوارها تتراص أوانٍ تشـبه البراميل الإسـطوانية الكبيرة، معلقة بإحـكام بحيث يصعب على الرائي أن يحدد ما بهـا أو حتى لونها الداكن، يبـدو مـن ثباتها على ظهر السـفينة أنها ثقيلة جدًا، فهـي لا تهتز بحركة السـفينة ولا تتأثر بارتطام الأشياء الصغيرة بها ولا تصدر صوتًا، مما يدل على أنها مليئة بشئ ما لا يعرفان ما هو؟

فـي مقدمة السـفينة التي كانـا قريبين منها حين أنزلهما بسـاط الريح الذي كان يحملهما، كان يوجد ما يشبه المنظار الكبير يوجهه أحدهم يمنة ويسرة وكأنه يحدد هدفًا ما يحاول رؤيته جيدًا.

بخطوات وئيدة وبدون صوت يضعان قدمًا على ظهر السـفينة ويرفعان قدمًـا، كانت أقدامهمـا حافية، يرتديان ملابس النـوم الخاصة بهما، ودون همـس تقدما خطوات، كانـت رودي باعتبارها الكبرى فـي المقدمة، بينما يزاحمها يوسـف محـاولاً حمايتها باعتباره الرجل، فرغم صغر سـنه يري نفسه هو الرجل، وهو الجدير بحماية أخته.

اقتربا من منطقة وسـط السـفينة ولم يلحظ وجودهما أحد نظرًا لصغر حجمهما بجوار كل هذه الأشـياء الضخمـة حولهم، كان ظلهما الخافت في حجـم القطة تقريبًا، ورغم تلاحق الأنفاس وسـرعة دقات القلب، والخوف،

إلا أنهمـا كانـا حذرين تمامًا، اختبأا تحت ظل جسـم غريب، ضخم جدًا لم يستطيعا تبينه، إلا أن الظلام أسفله كان موحشًا، حين لمسته رودي بأناملها الصغيرة كان ملمسـه باردًا جدًا، مصنوعًا من المعدن كالحديد، مغطًّي من كل جوانبه بقماش سـميك فلا يظهر له معالم، حاولت الابتعاد قليلاً لتحدد ما هذا البناء الذي يبدوان بجواره كالنمل الذي لا يراه أحد.

سـألها يوسف هامسًـا، ما هذا يا رودي؟ هل هو بناء حديدي على سطح سـفينة؟ انتظر يا يوسـف، إنه، إنه يشـبه المدفع الكبيـر، الكبير جدًا، أي مدفع هذا؟

أين حدوده وبدايته ونهايته؟

انظري يا رودي لارتفاعه، لا، ليس مدفعًا، إنه بناء ضخم

لا يا يوسـف، يبدو مدفعًا كبيراً، انظر لأعلي، تلك الماسورة الكبيرة التي ترتفع لأعلي وكأنها مئذنة مائلة، هي جزء منه،

أثناء سـيرهما حول هـذا البناء الحديدي الضخـم، لا تدري رودي كيف وجدت أخاها يتزحلق على السـطح المبلل ليحدث جلبة شديدة باصطدامه ببعـض الأدوات التي كان ينقلها البحارة، فانتبـه إليه أحدهم وهو الأقرب، صاح الرجل رعبًا لما رآه وقد حسب أنه رأي أشباحًا، في نفس الوقت الذي صـرخ فيها الولدان أيضًا مـن الخوف، والجميع كان يحـاول جاهدًا رؤية تفاصيـل ما حوله، مرت لحظـات حتى يهدأ الجميـع ويتراجع أحدهم عن الآخـر بضع خطوات ليسـتوعب، كانت نظرات الرجـل غريبة رغم ملامحه الطيبـة، ورغـم حجمه الضخم وسـمرة وجهـه الواضحة في ظـلام الليل، نظراتـه كانت تحمل تعجبًا، ما الذي أتي بطفلين على ظهر سـفينة حربية تقوم بمهمة صعبة في بحر مرمرة، وظلت راسـية بالقرب من شاطئه عدة أشهر، كيف استطاعا الصعود إلى السفينة؟ من الذي أتي بهما هنا؟ ومتى؟

وكيف دون أن يراهما أحد؟ من المستحيل أن يكونا قد تسللا من الفراغ أو الهـواء، تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكنهما بها الوجود في هذا المكان الآن.

هدأ الرجل واقترب منهما مرة أخري :

- مـن أنتما؟ ومـا الذي أتي بكما إلى هنا؟ هل تتبعـان أحد الضباط على المركب؟ أو أتي بكما الشيطان إلينا؟ أو أنكما من عيون العدو؟

كانت أسـنان يوسف تصطك في بعضها البعض من الرعب، وجسده كله ينتفـض ويتصبب عرقًا رغم برودة الجو، يحاول أن يتحدث إلا أن الكلمات لا تسـعفه فتختلط الحروف من الخوف، ينظر لحجمه بجوار حجم الرجل ويتخيـل، ماذا لو رفع هـذا الرجل الضخم قدمه ووضعهـا علينا؟ بالتأكيد سيقتلنا في لحظة واحدة، حين صور له خياله ذلك المشهد وهو يري نفسه وأخته مبعثريـن تحت أقدام الرجل، بدأت الدموع فـي الانهمار من عينيه، بينما أخته تضغط على يديه؛ لتهدئه وتقويه، قالت موجهة حديثها للرجل :

أنا رودينا، وهذا أخي يوسـف، من مصر، لا نـدري ما الذي أتي بنا هنا؟ كنا نقرأ في كتاب عـن تركيا ونتصفح الصور الخاصة بها وخرائطها على اللاب توب، وفجأة حملتنا الريح ووضعتنا على ظهر هذه السفينة ولا نعلم كيـف؟ كل ما نريده أن نعود لبيتنا حتى لا تقلق أمي وأبي علينا، فأخبرني حضرتك كيف نعود إلى البيت؟

ورغم خوف رودينا الشـديد، إلا أنها حاولت أن تتماسك وتظهر قوة أمام أخيها كي تثبته وتطمئنه.

كان الرجل يتابعها في ذهول، لا يفهم كلمة مما تقوله ولا يصدق، يحسب أن رودي تعبـث معه وتكذب حتى تخرج من المأزق الذي وضعت نفسـها فيه هي وأخاها، أو تحمي الشخص الذي أرسلهما أو أتي بهما إلى هنا.

بـدأ البحارة في التجمع حولهما، كل منهم يحاول الحديث معهما وطرح أسـئلة حتـى اختلطت الأصوات فما عادا يسـمعان شـيئًا، حتى شـق ذلك التجمع صوت جهـوري؛ ليأمر الجميع بالتراجع، ويأمـر الطفلين بالتقدم لمقابلة قائد السـفينة، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يقرر مصيرهما، على أن ذلك لن يكون قبل أن يفهم منهما كل شئ.

تقدم الطفـلان أمامه برفق، كانت رودي تضـم أخاها بذراعها الضعيف حـول كتفـه، بينما الرجل يوجههما يمينًا ويسـارًا حتى وجدا سـلمًا يؤدي إلى باطن السـفينة، كان السلم شـديد الظلمة؛ فلم يستطيعا رؤية درجاته، توقفا لحظة غير قادرين على التقدم، فتقدمهما الرجل وأشعل شيئًا يشبه الشـمعة الكبيـرة، مثبتة في جدار السـفينة يحيطها زجاج بلوري سـميك مفتوح من أعلي كالفوهة، أضاءت المكان فظهر سـلم عمودي لا يسمح إلا بنزول شـخص واحد ثم يتبعه من خلفه، نزل الرجل الذي اضطر أن يحمل يوسف لأن خوفه منعه من النزول درجة واحدة، بينما تبعتهما رودي خلف الرجل مباشرة، وما زالت تتشبث بيد أخيها المعلقة خلف ظهر الرجل حتى لا يبكي، انتهي السـلم لممر طويل ضيق، تتراص على جانبيه أبواب مغلقة كأبواب حجرات سفينة الركاب التي يعرفونها، الظلام يمتد في الممر حتى نهايته، غير أن بعض الضوء المنبعث من أسـفل أبواب الغرف يضفي على المكان بعض الإضاءة الخافتة.

يسير الرجل بالممر الطويل حتى يصل لغرفة تتصدر الممر في مواجهته وليست غرفة جانبية كباقي الغرف.

نقر الرجل الذي يرتدي ملابس تشـبه ما يرتديـه الجنود القدامى والتي شـاهدتها رودي في الأفلام القديمة من قبل، فكانت وكأنها تسـير في فيلم قديم تقوم ببطولته غير مصدقة ما يحدث لها ولأخيها.

نقر الرجل برفق على الباب فجاءهم صوت من الداخل يسمح بالدخول.

فتح الباب ليجدا غرفة متسعة، منظمة ونظيفة جدًا، على جانبها مكتبة صغيرة تحمل بعض الكتب، وعلي جانب آخر يوجد منظار أصغر من ذلك الذي شاهداه على السطح منذ قليل، كانت تدور عينها هنا وهناك علها تفهم أين هي؟ ومع من؟ لكنها لم تر سوي صورة مشاهد تشبه ما تراه في كتب التاريخ القديمة.

يضع البحار العسكري يوسف على الأرض برفق، ويلقي التحية على الضابط الذي يبدو أنه قائد تلك السفينة، ويقص على قائده في كلمات معدودة قصة الطفلين، فيطلب منه القائد أن ينصرف ويتركهما له ليري ما حكايتهما؟

يغلق الباب برفق ويصبح الأخوان في مواجهة قائد السفينة لا يدريان أين هما؟ ولا كيف يخرجان من ذلك المأزق الكبير؟

❖ ❖ ❖

مغامرة داخل الغابة المظلمة

رغم شـعور رودينا بأنهما في محنة كبيرة، ورغم خوف يوسـف الشديد والتصاقـه بأختـه ليلتمس الأمـان لديها، إلا أن رودي تولد لديها إحسـاس مخالف حين التقت قائد السفينة الحربية خاصة حين اقترب منهما ومسح علي رأس يوسف ليطمئنه مبتسمًا قائلاً.

كيف حالك أيها البطل الصغير؟

نظر يوسف لأخته ولم يجب وكأنه يطلب منها أن تجيب بدلاً منه

فأسرعت هي بالرد.

الحمد لله نحن بخير.

وكيف حالك أنت أيتها الكاتبة المبدعة؟

كان القائـد يتحدث وهو مبتسـم وعلي وجهه ملامـح الطيبة رغم القوة البادية، يدور حولهما وكأنهما مركز دائرة وهما يتبعانه بالنظر حيثما دار، يسأل ثم يصمت وهو يتفحصهما حتى نطقت رودي قائلة :

مـن فضلك، نريد أن نعود إلى البيت، فنحن لسـنا نـدري كيف جئنا إلى هنـا؟ ولا ندري أين نحن؟ وأبوانا سـيقلقان علينـا، ولا أريد لأمي أن تبكي خوفًا بسببنا.

ومن قال: إنكما محتجزان هنا، كل الأبواب مفتحة، تفضلا لو أحببتما الآن إلى سطح السفينة، وهناك اثنان من الجنود سوف يساعدانكما في الوصول لبيتكما، إن أحببتما الآن، وإن أحببتما أن تشـاركا في صناعة التاريخ وفي أكبر عملية فتح فلكما ذلك،

نظرت رودي لأخيها يوسف نظرة تعجب وارتياح، في ذات الوقت نظرة فيها تساؤل وتشجيع.

هل يعودان إلى البيت؟ وينعمان بسـريرهما المريح؟ أو ينتظران قليلاً، ليريا ما لا يمكن مشاهدته.

بينما هما في البيت ردت رودي في صرامة :

لا، سننتظر ونشارك، فنحن لسنا خائفين

ولكن يا رودي فيم سنشارك؟ ووالدتك التي ستقلق، وأبي الذي سيغضب؟، أليس من الأولي أن نعود للبيت لنقرر من هناك؟

لا يـا يوسـف، تقرران هنـا والآن، فـإن عدتما فلا مجـال لعودتكما مرة أخري، ماذا قررتم؟

سنبقي، سنبقي هنا لبعض الوقت على أن نعود قبل الصباح

اتفقنا، والآن وجب عليكما الانصراف مع الجنود لتروا بنفسيكما ما يتم.

لكنـي أريـد أولاً معرفة ما يدور، ما هذه الخرائـط؟ وأين نحن؟ وما تلك المهمة التي سنشارك فيها؟

اصبري يا رودينا، اصبري وستعرفين كل شيء في حينه.

توجهـت أنظـار الثلاثة حين طـرق الباب طرقًا خافتًـا، ودخل ثلاثة من الرجال يبدو أنهم من الضباط المهمين نظرًا لاختلاف ملابسهم عن ملابس الجنود الذين التقوا بهم على ظهر السفينة،

ألقي الضباط الثلاثة تحية الإسـلام على قائدهم ورد عليهم السـلام وبدا عليه الاهتمام لسماع ما لديهم من أخبار.

تنحـت رودي وأخوها بعيدًا حين رأيت القائـد يجلب خرائط من مكتبته الموضوعة بعناية على الجدار الخشـبي للسـفينة، كانـت الخريطة تحمل

رسـومًا ما يشـبه مضيقًا متصـلاً ببحر، لكنها لم تدرك أيـن هو؟ أو ماذا لعـدم وجود بيانات مكتوبـة على الخريطة؟ ليس إلا الرسـوم المعبرة عن وجود بحر ما أو محيط ليست تدري على وجه الدقة، لكن القائد أزاح بعض الأشـياء من على المنضدة التي تتوسـط الغرفة الصغيـرة، وفتح الخريطة بشكل كامل والتف الأربعة حولها قائلاً لهم :

أخبروني بآخر التطورات؟

الأمور كلها على ما يرام يا سيدي والخطة تسير وفق ما رتبنا لها كان هذا صوت الضابط الأول المجاور للقائد.

كان لا بـد من التفكير فـي خطة عاجلة بعد هذه الشـهور الطويلة التي حاصرنا فيها القسـطنطينية، والحمـد لله أن توصلنا لتلك الخطة الذكية يا سيدي، فكرة لا تخطر على بال العدو، لا يمكن أن يتصوروا أن سفننا يمكن أن تسـير على اليابسة لندخلها لمنطقة القرن الذهبي،وتلافي تلك السلسلة الكبيرة التي تغلق المضيق، وتحول دون دخول سـفننا إليه، وكان هذا هو صوت الضابط الثاني بينما كان يتحدث متحمسًا لفكرة قائده.

طمئنوني إذن، هل الطريق ملائم الآن لنقل السفن عليه؟

أجـاب الضابط الثالث، نعم يا سـيدي، فقد رتبنا الأخشـاب على شـكل قضيبيـن وهي غارقة الآن في الزيت، والليلة غير مقمرة، فهي مظلمة تماما وسنجر السفن على تلك القضبان الخشبية بالثيران الضخمة، ولن يستطيع أحد رؤيتنا نظرًا للظلام الشديد، وسنبدأ على الفور يا سيدي.

علي بركة الله إذن.

كانت السـفن تنتشـر في بحر مرمـرة على أبواب مضيق البسـفور في انتظـار الصعود إلى اليابسـة ليلاً تجرهـا الثيران والعبور بهـا في الغابة الكثيفـة إلى منطقـة القرن الذهبي ؛لتكـون قريبة بما يكفـي لفتح أبواب

المدينة واقتحامها مما ييسر عملية فتحها.

هكـذا فهمـت رودي ويوسـف من الحـوار الدائـر بين الضبـاط الثلاثة وقائدهم.

اسـتأذن الضباط في الانصراف، فأذن لهم القائد، بينما رودي تنظر إليه مستفهمة، إذا كانوا سينصرفون، فلم لا يذهبون معهم لمشاركتهم مهمتهم كما وعدهم القائد؟

فابتسم لها قائلاً :

دائمًا متعجلة، اصبري يا رودينا فسـنذهب معًا، أم تظنين أني سـأنتظر هنا وأرسل قادة جيشي وحدهم؟

كان الأخوان متحفزين في انتظار ذهابهم للغابة ومتابعة الحدث العظيم الذي يتم دون توقع منهما أن يشاركا في عملية بهذه الأهمية، بينما كانا من ساعات قليلة على وشك النوم في سريريهما.

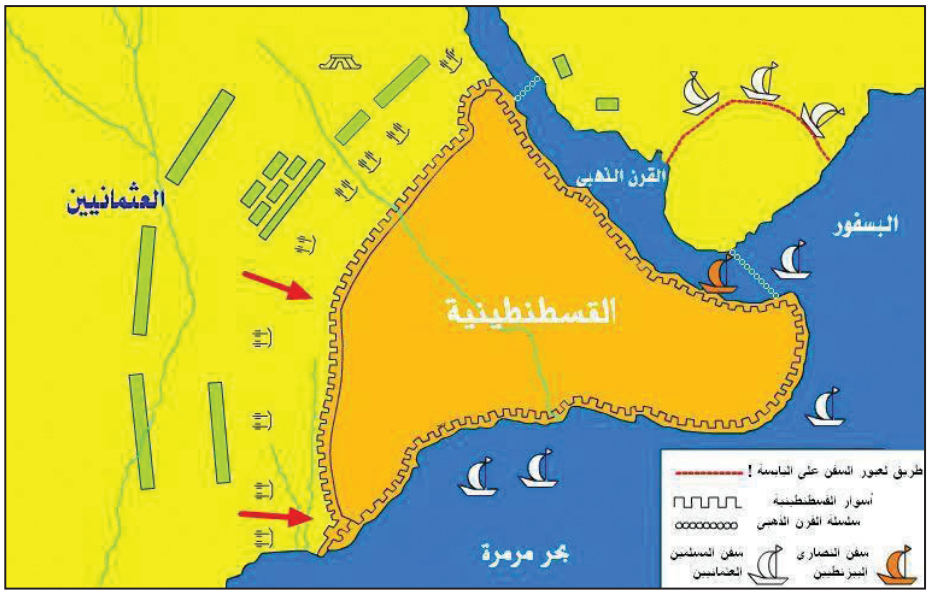

بالقرب من القائد كانا يسيران في خطوة عسكرية منتظمة، بينما يوسف يحــاول تقليد خطوات القائد الذي لم يعرفا اســمه حتــى الآن، حتى صعدا على سطح السفينة، بينما كان بالقرب منها

قــوارب صغيرة تقل آلات حربية من الســيوف والجنــود لنقلهم إلى البر، بينما السفينة قد تم ربطها بحبال قوية، يبدو أنها مجموعة الحبال الضخمة التي رأوها حين هبطوا على الســفينة منذ ســاعات، هبطا على ظهر قارب صغيــر من تلك القوارب التي تحيط بالســفينة ليتحرك بهم نحو الشــاطئ القريب، بينما الجميع لا يتكلم إلا هامسًــا وكأن هناك من يراقبهم، وصوت حركة القارب يشق مياه الخليج لا يسمعه أحد حتى وصلوا للشاطئ بسلام.

كانــت الحركة كبيرة جدًا، جنود يحملون آلات حربية، يتوجهون بها نحو غابة كثيفة من الأشــجار الضخمة، لا تكاد تري شــيئًا من تشابك أغصانها وكثرة الأشــجار بها، فاجتمع ظلام الليل بظلام الغابة بينما يلتصق يوسف بأخته الخائفة والتي تقترب من القائد العظيم الذي يحييه الجنود والضباط بإجــلال وتقدير، اقتربــوا أكثر من مدخــل الغابة ليظهر خطان كشــريط الســكة الحديد من خشــب الأشــجار، متراصان على هيئة قضيبان، اقترب يوســف ليتأكد منــه، فحذره أحد الجنود من الاقتــراب أكثر حتى لا تلتصق ملابســه بالأخشــاب المدهونة بالزيت، ســار الأخــوان بجــوار القائد الذي كان يتفقد ســير العمل بدقة ويلقي تعليماته والجميع يلبي وينفذ بســرعة ودقــة، تقدما أكثر نحو الغابة لتغيب الرؤية تمامًا وتظهر بعض ما يشــبه المصابيح الخافتة، يرون على ضوئها عجبًا، عشرات من الثيران المربوطة في حبال تشــبه تلــك التي رأوها من قبل، صفــوف تعقبها صفوف ثنائية، تسير ببطء شــديد، بينما يوجهها الجنود في اتجاه قضيب الخشب المثبت فــي أرض الغابــة المظلمة، ليظهر خلف تلك الثيــران كائن ضخم لا تظهر معالمه من شدة ارتفاعه وضخامته، يظهر ببطء من بعيد ليقترب ويقترب،

ومع اقترابه يزداد حجمه ويتضاعف فلا تكاد تري عيون الصغيرين نهايته فيـزداد خوفهما ويمسـك أحدهما بيـد الآخر، ينظران حولهمـا فلا يجدان القائد بالقرب منهما، يبدو أنه سبقهما ليتابع عمله فاضطرا للبقاء مكانهما وسط الجنود التي تحث الثيران على السير تجاه الغابة أكثر وأكثر.

❖ ❖ ❖

المفاجأة الكبرى

لــم يكن المشــهد الغريب وحده هو الذي يدعو إلــى بث الخوف والرعب في قلــب الطفلين، وإنما كثرة عدد الجنود مــن حوله على الخيول المخبأة وجوهها ورؤوســها بأغطية غريبــة، وكأنها ســتخوض معركة تحارب مع المحاربيــن، كان بعــض الجنود يحثون الثيران على الســير لتتضح معالم الكائن الضخم، إنه سفينة لا يكاد يظهر ارتفاعها، ولا تكاد تعرف نهايتها

سفينة؟ انظري يا رودينا، إنها سفينة.

نعم يا يوسف، سفينة من تلك السفن التي رأيناها في ا لبحر منذ قليل.

وماذا تفعل سفينة على الشاطئ؟ وفي هذا المكان في قلب الغابة؟ وإلى أين؟

لست أدري يا يوسف، إنه أمر غريب حقًا.

انظري من بعيد يا رودي، إنها ليســت ســفينة واحدة، تحاول رودينا أن تدقق النظر وسط الظلام لتتأكد من كلام يوسف، وبالفعل تري شبحًا قادمًا مــن بعيد تســبقه الثيران تجــره بصعوبة، بينما الجنود ينتشــرون في كل مكان.

جذبت رودينا أخاها من يده في اللحظات الأخيرة قبل أن يدوســه فرس ضخــم كان يمر بجوارهمــا يحث الجنود على الإســراع، للانتهــاء من نقل السفن قبل قدوم الفجر، وقفا يلتقطان أنفاسهما أسفل إحدى الأشجار، ثم جلسا متجاورين يراقبان المشهد من بعيد في ذلك المكان الآمن عن حركة الجنود والخيول ومسار السفن التي تجري على قضبان تجرها الثيران، من خلفهما

سـمعا أصواتًا وكأنهـا قريبة، أصواتًا وكأنهما سـمعاها من قبل لأطفال مثلهـم لكنهـا خافتة لدرجـة أنهما لم يسـتطيعا تحديد مكانهـا، أو ماذا يقولون، أو حتى أين هم؟ أشارت رودي لأخيها أن يصمت تمامًا لتحاول أن تسترق السمع لتفهم ما يقال أو من أين يأتي الصوت؟

وكان بالفعل الصوت يقترب، وكلما اقترب اتضحت معالمه أكثر، لتنشق الأشجار الكثيفة عن مفاجأة لم تكن في الحسبان،

صرخ يوسـف من فـرط المفاجأة وقفز من مكانـه ليحتضن ابن خالته «زيـاد»، بينما كانـت رودي هي الأخرى تلقي بنفسـها في حضن «دارين» ابنة خالتها وألقت عليهما عشرات الأسئلة في وقت واحد، بينما لم يزالا في حالة من الدهشة والعجب

كيـف هذا يا زياد؟ كيف يا دارين؟ ما الذي أتي بكما هنا؟ هل كنتما هنا من البداية؟ مع من جئتما؟ هل تعرفان أين نحن؟ هل تعرفان مع من كنا؟ هل يعرف والدانا أننا هنا؟ كيف وصلتما إلى هذا المكان؟

ومع أن زياداً كان في نفس الدهشـة إلا انه ظل متماسـكا يحاول إيجاد جواب على تساؤلات رودي، لكنه لم يكن يستطيع ذلك من سرعتها في إلقاء الأسئلة.

حاول زيادة تهدئتها، لكن فرحة يوسـف رغم تعجبه كانت كبيرة خاصة بداريـن المقربة إليـه وهي التي طالما صبرت على تسـاؤلاته وتحملته في اللعب.

تنحي الأربعة جانبًا وجلسـوا في حلقة متقاربيـن ليبدأ زياد في الحكي عما حدث ببسـاطة، وهو أنه بمجرد عودتـه من منزل خالته ليلة أمس بعد لقاء الأسـرتين واتفاقهما على البدء في التحضير للسـفر وإنهاء إجراءاته، انفـرد زيـاد بأخته في مكتبـة البيت ليبحثـا عن كل ما يخـص تركيا في

التاريــخ والجغرافيا والظروف الحياتية لشــعبها وأكثــر الأماكن التاريخية شــهرة والأماكن الســياحية والمطاعم والفنادق وكل مــا يتعلق بها، وفجأة وجد نفسه يمسك بيد أخته على ما يشبه البساط السحري؛ ليلقي بهما فوق ســفينة من تلك السفن المنتشــرة على خليج البسفور الآن، أو بالأحرى تلك السفن التي تجرها الثيران؛ لتنتقل بها للناحية الأخرى داخل الخليج لتكون في مواجهة حصون القسطنيطينية.

هنا استوقفته رودي.

انتظــر يا زياد، حتــى الآن هذا ما حدث معنا أنا ويوســف، فما هذا الذي تقولــه؟ لماذا يقومــون بنقل الســفن؟ أليس من وظيفة الســفن أن تحمل الأشــياء وتشــق الماء؟ لماذا يضطرون لتســييرها على الشــاطئ وفي تلك الغابة المظلمة؟ لماذا لا تدخل للخليج مباشرة لتواجه تلك الحصون؟

ألا تظنين أن هناك عشــرات مــن المحاولات تمت يــا رودي لاختراق تلك المنطقــة وعبورها، ومــن ثم فتح القســطنيطينية تلك البقعــة المهمة في العالــم؟ لقد حاول المســلمون على مر تاريخهم من عهــد الخليفة معاوية بن أبي ســفيان فتحها، لكنها كانت عصية على الفتح، لقد كانت تمثل أهم المدن للدولة الصليبية، لذلك كان تحصينها على أعلى مســتوى، أما مدخل الخليج فقد كان به سلســلة ضخمة، تمنع عبور أي ســفينة منه أو إليه، أي أنه من المستحيل دخول السفن عن طريق البحر.

الآن فهمت يا زياد؟ ولكن؟ لم كل هذا العناء في فتح مدينة واحدة؟ بينما المسلمون يملكون تقريبًا معظم قارة آسيا.

ألــم أقل لك يا رودي أن تلك المدينة لها مكانة غير عادية، فموقعها فريد حتى أنه قد قيل فيها «لو كانت الدنيا مملكة واحدة، لكانت القسطنيطينية أصلــح المدن لتكــون عاصمة لها»، ليس هــذا فقط، بل لقد بشــر بفتحها

النبي ﷺ حين سـألوه أيهمـا تفتح أولا : رومية أم القسـطنيطينية؟ فقال ﷺ القسـطنطينية، وقال عنها أيضا «لتفتحن القسطنطينية على يد رجل , فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

اضطر الأربعة يتحدثون بصوت مرتفع حتى يسـمع أحدهم الآخر وسط الجلبة الحادثة من تدافع الجنود الذين يتضاعف عددهم مع كل ساعة تمر، وإذا بأحد الرجال يقبل عليهم في ابتسامة عريضة مناديًا كلاً منهم باسمه وكأنه يعرفهم جيدًا منذ زمن بعيد، وحين اقترب منهم ألقي عليهم السـلام وجلس، وقبل أن يردوا التحية ليشـكلوا حلقة حول الشيخ الكبير لينظر كل منهـم إلى الآخر متسـائلاً ماذا يريد منهم؟ ومن أيـن يعرفهم وهم يلتقونه للمرة الأولي في حياتهم؟

❖ ❖ ❖

الشيخ الحكيم وحقيقة البساط السحري

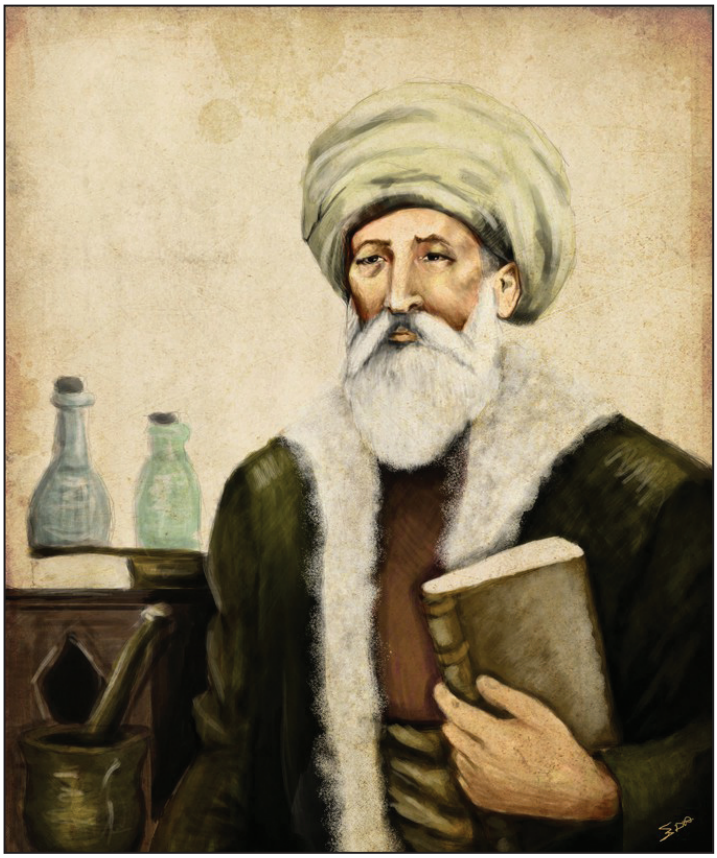

كانت نظرة الشـيخ تأسـر نظر الأطفال الأربعة إليه بشدة، لحيته البيضاء الكثيفة، وعمامته الكبيرة ولباسـه الأسـود المهندم وسكونه ووقاره وصوته الهادئ، والمصحف الذي لا يفارق يده، كل هذا يجعل للشيخ مهابة لا تعطي فرصـة لمـن معه أن يغيب عنه لحظة في شـأن آخر، بل له القدرة على شـد انتباه الحاضرين بقوة، وإجبارهم على الاستماع إليه حبًا واحترامًا وتقديرًا.

تحلقوا حول الشيخ ينصتون لما قد يقوله ليبدأهم مبتسمًا :

بالطبـع لا تعرفونني، وتتعجبون أنني أعرفكم، بل وربما تتعجبون أكثر حيـن تعرفون أني من أرسـلت في طلبكم لما أعرفه عنكـم من تميز ديني وأخلاقـي، واهتمامكم بشـأن المسـلمين، وأحييكم على ذلـك خاصة أنكم تنفذون قول جدكم رسـول اللـه ﷺ «من لم يهتم بأمر المسـلمين، فليس منهم»، أجاب الأربعة ورددوا في صوت واحد : -عليه الصلاة والسلام-.

فـي صوت خافـت وبعينين تنظران في الأرض اسـتأذن زياد في طرح سؤال على الشيخ فأذن له :

لماذا نحن يا سيدي الشيخ؟ لماذا اخترتنا نحن لنسافر إليكم؟

أليس كان من الواجب يا زياد أن تسأل عن المهمة أولاً؟

نعم يا سيدي، كنت سأسأل أيضا هذا السؤال.

سأجيبك يا زياد، فهلا صليتم على حبيبكم محمدﷺ!

عليه الصلاة والسلام.

أنـت يا زياد في الصف الثاني الإعدادي فـي بلادكم مصر، قل لي : ماذا تحفظ من كتاب الله؟

أحفظ الثلثين يا شـيخنا، وبإذن الله خلال عامين سـأختم القرآن حفظًا كما وعدت أبي ومعلمي بالمسجد.

أحسنت يا زياد، فقل لي كم كتابًا قرأت؟

لست أذكر العدد يا سيدي، هي كتب كثيرة لكني لست أذكر عددها، فكل ما أعرفه أنني بمجرد معرفتي بالقراءة والكتابة كانت أمي تقتني لي الكتب وتقرأهـا لي، ثم أقـوم أنا بقراءتها مرة أخري كي أشـبع رغبتي وحبي في القراءة.

وفي أي مجال تقرأ أيها الفتي؟

في كل شئ، القصص، وكتب الدين، والشخصيات التاريخية

وبالطبع قرأت عن الفتوحات الإسلامية، أليس كذلك؟

بالطبـع يـا شـيخنا، وكل من حولـي يشـجعونني على ذلك فـي البيت والمدرسة.

نعـم يا شـيخنا كان هذا هو صـوت رودينا ليس هذا فقط، بـل إن زيادًا يشـرح لنا أي كتاب قـرأه، رغم أننا لم ندرس الخريطة في المدرسـة بعد، استطعت أن أقرأ خريطة تركيا، وأحدد من خلالها المواقع.

انتظري يا رودينا، سيأتي دورك وسألقي عليك الأسئلة أنت أيضًا، دعيني أكمل مع زياد.

لتعلم يا زياد أن التاريخ الذي تقرؤه بسهولة ويسر في سطور معدودة لم يكن تاريخًا عاديًّا، مكتوبًا بالحرف العادي يا بني، إنما كان تاريخًا مكتوبًا بدمـاء الأبطال، جنود خرجوا في سـبيل اللـه، تركوا أموالهـم، وعائلاتهم، وديارهـم، وأوطانهم، ليس رغبة في مغنم، وليس رغبة في دنيا يصيبونها، إنمـا خرجوا ليحرروا الناس، من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، أتذكر يا زياد صحابيًّا جليلاً اسمه «ربعي بن عامر»؟

نعم يا سيدي أذكره، إنه كان في جيش المسلمين الذي فتح بلاد الفرس، والتقي «رسـتم» قائد جيشـهم في خيمته المذهبة، فربط خطام فرسه في كرسـي مذهب، وكان يتكئ على سيفه فيفسد السجاد الفخم، والذي حسب رستم أنه سـينبهر بذلك السـجاد ومظاهر الغني الفاحش، لكن الصحابي ربعيًّا بن عامر لم ينتبه لأي من ذلك، ووقف أمام رسـتم عزيزًا قويًّا يدعوه للإسـلام وهو يسـأله : ما الذي أتي بكم من دياركم؟ فقال له ربعي «جئنا لنحـرر الناس من عبادة العبـاد، إلى عبادة رب العبـاد، ومن ضيق الدنيا، لسعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام.

أحسـنت يا زياد، أرأيت؟ لهذا اخترتك يا زياد، لعلمك بالتاريخ وشـغفك به، لحبك لأجدادك وسـيرك على طريقهم، القرآن يا بني هو سـبيل الرفعة والعزة والكرامة والحرية، والسيف يحمي القرآن، ويحمي العدالة، ويحمي حريـة الناس، وإلا لو صـارت كل تلك الأمور في يد الضعفاء حتى لو كانوا أصحاب حق، فسـيكونون لعبة في يد الظالمين، فيقضون على أهل الحق، ثـم يقضون علـى الحق ذاته، أنت تحفظ القرآن، وتقـرأ وتتعلم، فقد حزت نصف الطريق، أما النصف الثاني فهو في القوة والتدريب والعمل والسعي والحركة، لذلك أنت هنا يا ولدي، إن بلادك يا زياد في حاجة إليك.

تقصد مصر يا شيخنا؟

لا يـا زياد، مصر هي قلب بلاد المسـلمين، لكنها ليسـت كلها، إن بلادك التي تريد جهدك وعلمك وقوتك وأخلاقك هي بلاد المسـلمين جميعها، هي كل شبر فيها، إن ملكك وإرثك يا بني من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، هي بلاد الخلافة التي كان يصدح فيها الأذان على مدار السـاعة فلا يتوقف ذكـر الله في الأرض، هي حيث تمطر كل سـحابة في الأرض المترامية، إن بلادك يا ولدي تريدك أن تتعلم ولهذا أنت هنا لتري عظمة تراثك،، وكيف أن التاريخ الذي تقرؤه لم يكن سهلا بناؤه وكتابته، وإنما كان أرواحًا وأحلامًا وأمنيات ودماءً بذلت في سـبيل الله ، فانتبه جيدًا لكل ما يدور حولك حتى تعود، فهل تعدني يا زياد؟

أعـدك يا شـيخنا ومعلمنـا، أعدك بأن أبـذل جهدي وأنتبـه لكل صغيرة وكبيرة.

أما أنتن يا دارين ورودينا فلا تقل واحدة منكما عن زياد في فهمه وحبه للقراءة وتحصيل العلم والاهتمام بأمور الأمة رغم صغر سنكما.

أنتمـا يا بنيتـاي نموذج رائع لبنات المسـلمين في هـذا الزمن الصعب، فالفتاة كالولد في الدين الإسلامي، لها ما له وعليها ما عليه ، في وقت الشدة

تجدها تنهض وتناضل وتحمل قضية بلادها، تتعلم وتنمي ذاتها رغبة منها في نهضة بلادها ورفع شـأن دينها، لقد علمت يا دارين أن والدتك اختارت لك هذا الاسـم تيمنًا بالشهيدة الفلسـطينية «دارين أبو عيشة»، تلك المرأة التي تركت أبناءها وزوجها وبيتها وفجرت نفسـها فيمن اغتصبوا أرضها، وانتهكوا مقدسـات المسلمين، كانت الحياة في فلسطين عندها غالية، لكن الموت في سـبيلها أغلـي، فلا معني للحياة دون حرية يـا دارين، لا معني لوطـن منتهك، لا تطيب الحياة وأرضك يطؤهـا المغتصبون، لا هناء عليها إلا بتطهيرها منهم، وتحريرها حتى آخر شبر فيها، إياك يا ابنتي تستمعين لدعاواهـم بأنهـم يريـدون السـلام، أو التعايـش، إنهم لا يعرفون سـوي الخيانـة، والغدر، والخداع، إنهم لا يرضون إلا بهلاك المسـلمين واغتصاب مقدسـاتهم، إنهم يعون جيـدًا يا ابنتي أن المسـلم إذا انتبه، وفهم، وتعلم، فلـن يكون لهم في بلادنا مقـام، ولن تطيب لهم الأرض، ولن يسـتطيعوا العيـش فيها يومًا واحدًا، ليس معني هذا يا أحبابي أننا قتلة، أو إرهابيون كمـا يطيب لهم أن يطلقوا علينا، لا، بل نحن أصحاب حق، نحب الخير لكل العالم، ونسعي للسـلام، ورسـالتنا للناس الخير، إنما أرضنا، ومقدساتنا، وحقوقنا، وحرياتنا، دونها جميعًا الموت، لا حياة لنا إلا أحرارًا أعزة، أفهمت يا دارين؟ فهمت يا رودينا؟

نعم يا جدي فهمنا.

وأنت يا يوسـف، رغم أنك لـم تتعلم القراءة جيدًا بعـد، إلا أني أري فيك نباهة المسـلم الصغير الحريص علي دينه رغم ضآلـة معلوماته، حفاظك على الصلوات في وقتها، وتقليد الكبار في القراءة والبحث رغم عدم فهمك كل شـيء بعد ينبئ بفتي له شـأن كبير في حمل قضايا بلاده، ولذلك كنت ممن اخترتهم لحضور تلك المهمة الكبيرة، أتدرون ما هي؟

ما هي يا جدي؟

فتـح تلـك البلاد العظيمة، والتي سـوف يكون لها شـأن كبير في نشـر

الإسلام وتقوية المسلمين، ستشاركون في الفتح الأكبر الذي بشر به النبي- صلي الله عليه وسلم-، لها أنتم هنا، ولذلك جئت بكم على البساط السحري لتشاهدوا ما قرأتم عنه وبحثتم بأنفسكم في تلك البلاد التي ستزورونها مع آبائكـم بعد أيام، لتعلمـوا أن زيارتكم لا تتوقف على الحدائق والمتنزهات والأنهـار والجبال والمناظر الطبيعيـة الرائعة، وإنما لتعلموا أن كل شـبر ستسيرون عليه في شوارعها، كان عليه دم من دماء هؤلاء الجنود الأطهار، وأن الإسلام يا أحبابي يستحق، أن نعيش به ونموت في سبيله.

صمت الشـيخ قليلاً لينتبه على صوت مرتفع، مئات من الرجال الأشـداء مع المئات من الثيران، يجرون خلفهم مدفعًا ضخمًا، يسحبونه داخل الغابة كما سحبوا من قبل السفن الضخمة، كان مدفعًا مختلفًا، لم يشبه أي مدفع رأوه من قبل، أشـار إليهم الشـيخ قائلاً : هذا هو المدفع السلطاني والمعد خصيصًـا لتلك الحرب، يزن حوالي سـبعمائة طن، وقـد صنعه المهندس المجـري «أوربان» الـذي فر من ظلم الإمبراطور قسـطنطين حاكم الدولة البيزنطية وسـاعده في بنائه المهندسون المسـلمون، ليكون المدفع الأول من نوعه، وها هو تلميذي السلطان «محمد الثاني» يبدأ به المعركة الكبرى.

في شوارع القسطنطينية

ابتعد الشيخ وهو يحث الجنود بصوت مرتفع علي الإسراع في تحركهم، يذكرهم بالنصر والجنة -ورضي الله عنهم -، وقد لاح الفجر في الأفق، وقف الشـيخ على هضبة بين الأشـجار ليؤذن للفجر داعيًـا الجنود للاصطفاف للصلاة، اسـتعد الأطفال للصلاة خلف الشـيخ الكبيـر بالوضوء من جدول صغير تهافت عليه الكثيـر من الجنود بينما اكتفي الكثيرون منهم بالتيمم لقلة الماء بالجدول والتزاحم عليه.

اصطف نصف الجنود خلف الشـيخ بينما وقف النصف الآخر يحمونهم فـي دائرة تحيط بالمصلين، بعد أدائهم ركعتي الفجر، أقام أحدهم الصلاة واصطفوا ليصلوا الصبح، دعا الشـيخ في دعاء القنوت بالنصر للمسـلمين وبالثبات للجنود وبالتوفيق للسـلطان الشاب الذي خرج بأكثر جنود بلاده لفتح تلك البلاد العنيدة.

أمـن الجميع على دعاء الشـيخ ليختم صلاته، وحين الانتهاء اسـتبدلت الأدوار، فصلي من لم يصلِّ، ومن أدي صلاته حمل السـلاح ووقف ليحمي المصلين في مشـهد مهيـب تنخلع له القلوب، في دقائـق عادت الصفوف للعمل كخلية النحل،

وبسـرعة أكبر كي يدركوا الوصول بالسـفن لمنطقة القرن الذهبي قبل طلوع الشـمس، لتبدأ المعركة الحقيقية تلاحم الأطفال في صفوف الجنود الذين يحملون الأسـلحة الخفيفة مثل النبال والأسهم وحملوا بعضها، سار زياد بجوار أحد الجنود ليسأله

حدثني عن الشيخ أيها الجندي.

أي شيخ أيها الصغير؟

الشيخ الذي صلى بنا الصبح، وها هو ينادي من بعيد في الجنود ليسرعوا.

إنه الشيخ آق شمس الدين، ألا تعرفه؟

أعرفه، لكني لا أعرف إلا اسمه.

إنــه معلم ومربي الســلطان، لم يكــن أحد له كلمة على الســلطان محمد الثاني إلا الشــيخ، وما كان أحد يســتطيع أن يضربه ويؤدبه في صغره إلا هــو، ليس هذا فقط، بل هو الذي أقنع الســلطان بأنــه الأمير المقصود في الحديث النبوي الشريف «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش جيشــها»، بمعنى أن للشيخ الفضل الأول بعد الله في هذا الفتح إن أتمه الله علينا.

تقصد أنه كان يحفظه القرآن في صغره؟

ابتســم الجنــدي قائلا، لقد علمــه القرآن والســنة والفقه وكافــة العلوم الإسلامية في زماننا، كما علمه التاريخ وعلم الفلك والجغرافيا والرياضيات.

استمر زياد في الحديث مع الجندي بالقرب من أخته وأبناء خالته وعينه لا تفارقهم باعتباره أخاهم الأكبر والمسئول عنهم، كان نور النهار قد ملأ المكان وأوشكت الشمس علي الشروق وقد وصل الجيش إلى منطقة القرن الذهبي بعد أن تجاوزوا الغابة المظلمة الكثيفة وبدأ الجنود في سحب السفن إلى البحر بالخليج في مواجهة الحصون.

من بعيد كانت أسوار القسطنطينية تبدو شاهقة الارتفاع، منيعة الحصون، كانت المدينة محاطة من ثلاث جهات بالماء، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي المغلق بالسلسلة والتي استطاع جيش المسلمين تجاوزها بسحب السفن عبر تلك الغابة على اليابسة، وكان يحيط بالمدينة سور مزدوج ملئ بالجنود المترسين بالسلاح والنبال يمنعون أي محاولة للاقتراب، كان السلطان محمد الفاتح في خيمة وسط جيشه يضع بها الخطط ويتابع محاولات الاقتحام، ويبحث عن ثغرات، ونشر الجيش الإسلامي ليحكم الحصار على المدينة.

كان يحلو لزياد ورودي التنقل بين خيام الجند تارة ويقتربون تارة أخري من خيمة السلطان الذي لم يروه وجها لوجه منذ قدومهم، ليقضوا معظم الوقت بجوار خيمة الشيخ آق شمس الدين، استطاع زياد أن يوثق علاقته بالجنود، وبإيحاء من الشيخ شمس الدين قاموا بتدريبه على فنون الدفاع عن النفس واستخدام النبال والحركة بخفة بين الجنود ليساعدهم في حمل السلاح وتبديل السيوف والكنانات التي تحمل السهام.

مرت أيام طويلة على الحصار تخطت الخمسين يومًا، بينما الحالة المعنوية للجنود تدهورت لطول مدة الحصار، وما يتم هدمه بالهجوم النهاري، يقوم جيش القسطنطينية ببنائه ليلاً وكأن شيئًا لم يكن، فيحدث تذمر بين الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من مائتي وخمسين ألف جندي.

كان عدد الشهداء يوميًّا في تزايد جراء هجوم جنود قسطنطين من فوق القلاع المنتشــرة على الســور المحيط بالمدينة، انتشر الغضب بين الجنود، وذهب الأمر ببعضهم لملاقاة السلطان غاضبًا يخبره أن الشيخ شمس الدين غرر بهم وأنهم لن يســتطيعوا فتــح المدينة، وأنهم جازفوا بجيش المســلمين ويجب عليهم العودة لبلادهم لإنقاذ البقية الباقية منهم،

كان الســلطان محمــد الفاتــح غاضبا، غيــر أن هيبة الشــيخ منعته من مواجهتــه بهذا الغضب، فأرســل أحــد الجنود يطلب من الشــيخ الحضور لخيمة الســلطان، وبالفعل ذهب الجندي للخيمة ليمنعه حراس الشــيخ من الدخول عليه، وقالوا له أبلغ الســلطان أن الشــيخ يرفض لقاء أحد ولو كان الســلطان نفسه، وأمر ألا يدخل عليه أحد الخيمة، عاد الجندي بتلك الأخبار إلى الســلطان وقد ســمع زياد الحوار فاندهش، وتوقع أن يطيح الســلطان بالشيخ الذي يرفض لقاءه، كيف بواحد من الرعية أن يرفض لقاء السلطان، ويأمر ألا يزعجه أحد في خيمته حتى لو كان الشيخ الذي علمه؟ انتظر زياد أن يسمع خبر مقتل الشيخ هذا اليوم نظرًا لهذا العصيان الذي أبداه الشيخ والحرج الذي سببه للسلطان أمام جنوده.

بـل قل يا يوسـف، معقـول أن يكون هذا الشـاب الصغير هو سـلطان المسلمين، وهو قائد هذا الجيش الكبير؟

تخيل يا زياد؟ تخيل أن يكون هذا هو السلطان؟

صمت الأربعة في دهشـة كبيرة بينما كانت عيونهم تتابع السلطان الذي يتخطي الخيام ليقف على باب خيمة شـيخه، يقف أمامها يستأذن الجنود فـي الدخول فلا يأذنوا له، لشـدة غضبه ورغبته في ملاقاة الشـيخ فقاوم الجنود وشـق الخيمة بسـيفه بينما الجميع يكتم أنفاسه خوفًا على الشيخ من غضب السـلطان، لكن الفاتح يقف عند الخيمة ويطأطئ رأسه وتنحدر دموعـه من عينه وهو ينظر للشـيخ الذي وجده سـاجدًا باكيًا يناجي ربه، وقف حتى انتهي الشـيخ من صلاته وينظر إليه قائلاً ـ امض الآن فما هي إلا ليلة وتفتح المدينة.

انصرف السلطان وهو على يقين من الفتح لتظهر له فكرة جديدة يستطيع مـن خلالها إنهاء المعركة اليوم، فقد نادي بالنجارين ليقوموا ببناء خشـبي مكـون من ثلاثة طوابق، في كل طابق عدد من الجنود يكونون في مسـتوي ارتفاع الأسوار، ويفاجئون جنود الحراسة بالمدينة ويقضون عليهم، وبالفعل تم الأمر ليصنعوا مزيدًا من تلك الأبنية الخشبية المتحركة، وهنا يتم استخدام المدفع السلطاني الذي تبلغ قذيفته مسافة ميل، ويصل وزنها لسبعين طنًا، فيكبر المسـلمون بإحداث تشـققات كثيرة في السـور فيدخل آلاف الجنود منها مكبرين، ويحدث الاشتباك المباشر مع الكفار وينهزم جيش الصليبيين في مواجهة الفاتحين، وتنكسر المدينة أمام الزحف الإسلامي الكبير.

بيـن الجنـود يدخل الأطفال الأربعـة مكبرين يجوبون شـوارع المدينة، يرون بأعينهـم هروب الجنود واختباء أهلها في البيوت والأقبية والكنائس، بينما السـلطان يدخلها بجوار شيخه شـاكرين لله نعماءه ليحدث ما ليس في الحسبان.

آيا صوفيا وأخلاق الفاتح المسلم

توجه السلطان والشيخ مع الجنود تجاه كنيسة آيا صوفيا، وهي الكنيسة الأكبـر في المدينة، كان بها الآلاف من البشـر الخائفين يحتمون بجدرانها مع القساوسة والرهبان، كان الأطفال في مقدمة الجيش بجوار مستشاري السـلطان وقادة جيشه يشاهدون كل شيء عن قرب، عندما اقترب الجيش من الكنيسـة لاحظ الأطفال أن أبوابها تفتح، فتوجه السـلطان بنفسـه إلى القساوسـة يطلب منهم تهدئة النـاس وتطمينهم بأنه السـلطان لن يؤذي أحدًا منهم، وأنهم في بلادهم أحرار، كان العديد من الرهبان قد اختبؤوا في سـراديب الكنيسة، ولما رأوا ما حدث وأن السلطان لم ينتقم من أحد منهم أو يؤاخذه على هويته أو يطلب منه تغيير دينه فتحوا السـراديب وخرجوا لملاقاة جيـش الفاتحين، بل وكثير منهم حيـن رأي ذلك التعامل بالرحمة والحب وتلك الأخلاق أعلنوا إسلامهم، كما أعلن معظم أهل المدينة إسلامهم.

علي الفور قام المسلمون بإخفاء الصور على الجدران، تلك التي يدعون أنها صور المسيح والسيدة مريم، كما كسروا الصلبان وأزالوها بعد أن أمر السـلطان بتحويل الكنيسة لمسـجد ما يزال قائمًا حتى اليوم، وهو مسجد «آيا صوفيا».

فتح السلطان باب فداء الأسري بالمال بعد أمره الجنود بحسن معاملتهم، ومـن العجيب أن يدفع من ماله الخاص فـداء الكثيرين منهم خاصة أمراء اليونان.

كان الأطفـال ينظرون لكل هذا مندهشـين وينظر أحدهم إلى الآخر، أي رحمة تلك التي يتعامل بها سـلطان شـاب فاتح مع أهل المدينة التي كانت تحاربه منذ بضع ساعات فقط.

كانوا منبهرين بالفاتح خاصة زياد الذي كان يحاول تقليده في حركاته وطريقة كلامه وطريقة إمساكه بالسيف وتوزيعه المهام

حتى حديثه عنه مع الجنود ومع إخوته، يصفه كما يصف أباه أو صديقه الذي يحبه حبًا جمًّا، أو أستاذه ومعلمه المقرب

أرأيت يا دارين؟ ألم أقل لك إن السلطان محمد الفاتح شخصية لم تتكرر في التاريخ؟

كيـف يا زياد؟ ألم نقرأ معًا أن تاريخ المسـلمين ملئ بنماذج كثيرة مثل محمد الفاتح؟ ألم تحكِ لي بنفسك قصة أسامة بن زيد القائد الصغير الذي قاد جيشًا ضد الروم وكان في هذا الجيش كبار الصحابة؟

نعـم يا دارين، لكن محمداً الفاتح مختلف، أسـامة بـن زيد تربي على يـد النبي ﷺ، أمـا محمد الفاتح فعـاش في زمن آخر، هـذا غير صفاته المتميزة.

وكل الفاتحيـن يـا زيـاد أخلاقهـم متميزة، تلـك في الأصـل هي أخلاق المسـلمين جميعا حين يكونون قادة أو فاتحين أو حتى مجرد جنود، كلهم يتميزون بالحزم، والشجاعة.

نعم يا رودي، جميعهـم ذوُو ذكاء غير عادي، يتميزون بالعدل والرحمة والإخلاص.

ولا تنـس صفة هامة أخري يا زياد، إنهم كلهـم يتعلمون اللغة والتاريخ والفلسفة وفنون القتال والفلك والجغرافيا.

صدقت يا دارين هم بالفعل كذلك.

حضر الجميع خطبة الجمعة الأولي في مسـجد «آيا صوفيا» والتي ألقاها الشـيخ شـمس الدين، والذي كان مشـغولاً في الأيام التالية بالبحث عن قبر الصحابـي «أبو أيوب الأنصاري» الذي دفن مـن قبل بالقرب من المدينة في إحدى المحاولات السابقة في فتح المدينة، وهو موجود للآن يزوره من يريد.

تجول الأطفال بصحبة الجنود بمعظم شـوارع المدينة لمراقبة الأسـواق وضمـان تحقيق الأمان للناس الذين كانـوا يدخلون في دين الله أفواجًا لما

لقــوه من حب ورحمة في معاملة المســلمين لهــم، ليأتي نداء من بعيد من أحد الجنود.

أيها الأطفال، عفوًا، أيها الشــباب، إن الســلطان يريدكم هو والشــيخ في المسجد الآن، فهيا إلى هناك.

أسرعوا جميعًا بصحبة الجندي للقاء السلطان محمد الفاتح ولقاء الشيخ العظيم شمس الدين.

حين وصلوا اســتقبلهم السلطان بترحاب شديد، كذلك الشيخ الذي مسح على رؤوسهم مبتسمًا وأجلسهم بجواره في مواجهة السلطان.

بدأ الشيخ شمس الدين بالكلام وهو يوزع نظراته بين الأربعة قائلاً لهم :

قل لي يا زياد؟ ماذا تعلمت من تلك التجربة التي مررتم بها؟

اعتــدل زياد في جلســته وهو يقــول، لقد تعلمت الكثير يا ســيدي، أولاً: تعلمت أن المسلم يجب أن يكون قويًّا وليس ضعيفًا.

ثانيًا: أن الجيوش والقوة والسلاح لن تنفع صاحبها دون الصلاة والصيام والدعاء وقيام الليل.

ثالثًا: تعلمت أن الناس حين يعرفون أخلاق المســلمين الحقيقية، سوف يقبلون على الإســلام بأعداد كثيرة، بدليل أن أهل القســطنيطينية بما فيهم الرهبان والقساوســة الذين كانوا يختبئون في كنيســة آيــا صوفيا خرجوا وأعلن معظمهم إســلامه حين علم بتعامل الســلطان محمد الفاتح مع أهل المدينة، وكيف عفا عنهم وأكرمهم.

ابتسم الشيخ وهلل قائلاً : أحسنت يا زياد.

ثم توجه إلى دارين ليسألها نفس السؤال فأجابت :

تعلمــت يا جدي أن العالم يحتاج للمســلمين، وأن المســلمين يحتاجون

إلى دينهم وإسـلامهم حتى يسـتطيعوا أن يكونوا كالسلطان محمد الفاتح وجيشـه، وتعلمـت أيضـا أن العلم جزءٌ مـن الدين، ولولا العلـم الذي حثنا عليه القرآن والكتب التي قرأها وتعلمها السـلطان ما استطاع أن يكون من الفاتحين، وما قدر علي أن يقوي جيشه ليكون جديرًا بالفتح.

أرأيت أيها السـلطان؟ أرأيت أنني أحسـنت الاختيار حين طلبت منك أن يكون هؤلاء الأبطال الصغار ضمن جيشـك في الفتح؛ ليبلغوا رسالتهم إلى أمتهـم في عصرهم؟ إنهم أطفـال نابهون أذكياء، ولسـوف يكون لهم في بلادهم شـأن، ومهمتك أيها السـلطان لن تنتهي هنا بفتح القسـطنطينية، بل إن هذه الأجيال سـوف تكمل رسالتك في عصر لن تراه، ولن تتخيل من ضعف المسـلمين فيه أنه يأتي، لكنها كبوة سـرعان ما سـتزول، وهذا هو الجيل الذي سيفهم ويكمل ما بدأته.

صدق السـلطان علي كلام شيخه شمس الدين، ووقفا كي يودعا الأطفال ليعـودوا إلى بلادهم بتلـك الدروس القوية، والتي سـينطلقون منها لإعادة البنـاء الحضاري الضخم الذي وضعه السـلطان محمد الفاتح فيما يعرف بتركيا اليوم.

طار بسـاط الريح بالمغامرين الأربعة وهم يلوحون للسـلطان والشـيخ وجيش المسـلمين في القسـطنيطينية، وتبتعد المدينة عـن الأعين لتظهر معالم الخريطة أكثر، يغمض الجميع عينه حين يسـرع بهم البساط ليلقي كل منهـم في غرفتـه تمامًا مثلما أخذهم دون أن يدري أحد منهم أن الآخر كان مسـافرًا في نفس الاتجـاه حتى التقوا في تلك الليلـة بالغابة، انتبهت رودي أن الوقـت كان مـا يزال ليـلاً، وأن البيت هادئ تمامًا وكأن شـيئًا لم يكن، كان يوسـف علي وشك أن يصرخ ويهرول تجاه غرفة والديه ليحكي لهما، لكن أخته جذبته من يده وأشـارت إليه أن يصمت تمامًا، وأن يتوجه كل منهـم إلى غرفته دون أن يفصح عن أي مما حدث، وكأن شـيئًا لم يكن

حتــى يعرفا ما الذي صار، وكــم غابا عن البيت، ورد فعــل والديهما حين يريانهما.

مع نداء الفجر كانت الأم تطرق الباب علي الجميع كي يســتيقظ للصلاة، ومع صعوبة الاســتيقاظ إلا أن الجميع كان يســتعد للصلاة بالوضوء، كان الأمــر بالبيــت رتيبًا وكأنهما لــم يغيبا، كانت رودي تختطــف النظرات مع أخيها وهما يبتســمان، فوالداهما لم يلاحظا غيابهما تلك المدة، ويبدو أنها كانت ليلة واحدة تلك التي قضياها بالخارج في تلك المغامرة، ذهب يوسف للصــلاة مع والده بالمســجد، بينما اصطفت رودي بجــوار والدتها لتصلي معها جماعة، بعد الصلاة أصابها الشــك في نفســها، هل كانت تحلم؟ هل مــا مرت به تلك الليلة، أو تلك المدة الطويلة مجرد حلم، بينما هي تفكر إذا برســالة علي هاتفها من زياد كان نصها : لا تخبروا أحدًا بما حدث، فإنهم لا يعلمون شيئًا، حتى لا يقلقوا علينا.

ابتســمت رودي واطمأنت إلى أنها كانت مغامــرة حقيقية، وأن رحلتهما المرتقبة في بلاد السلطان، لن تكون هي الرحلة الأولى..

❖ ❖ ❖

الفهرس

زياد المغامر الواعد..... ٤

رودينا الذكية..... ٧

يوسف الفنان الصغير..... ١٠

المفاجأة..... ١٢

رحلة في ظلام الليل..... ١٥

في عرض البحر..... ٢٤

مكتبة في جوف السفينة..... ٢٨

مغامرة داخل الغابة المظلمة..... ٣٣

المفاجأة الكبرى..... ٣٩

الشيخ الحكيم وحقيقة البساط السحري..... ٤٣

في شوارع القسطنطينية..... ٤٩

آيا صوفيا وأخلاق الفاتح المسلم..... ٥٤